



مجلة جامعة الزيتونة الدولية - مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية

<https://journal.ziu-university.net>

30/03/2024

98-67 : ص.ص العدد العشرون ISSN: 2958-8537 Issue: N20

Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

مركزية السيميائيات في المشروع التنظيري والنقدي لمحمد مفتاح
"مفاهيم موسعة لنظرية شعرية" نموذجاً

**The centrality of semiotics in the theoretical and critical project of
Mohammad Miftah "Extended concepts of poetic theory" as an example
(or as a model)**

الجراري يونس Jerari Younes

دكتور في الدراسات العربية- تخصص: النقد الأدبي الحديث وتحليل الخطاب

جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس- فاس.

Université Sidi Mohamed Ben Abdellah - Faculté des Lettres et des Sciences Humaines

Sais - Fès

Younes.jerari@gmail.com

0009-0002-0216-284X

المخلص

قدّمت في هذه الدراسة تصورا عاماً حول اشتغال المنهج السيميائي في المتن النقدي لمحمد مفتاح، وذلك، بالوقوف على المفاهيم السيميائية التي يحتفي بها، باعتبارها أدوات إجرائية لمساءلة الخطاب الشعري وتفكيك أنساقه، بالإضافة إلى توضيح هذه السيميائيات التركيبية التي يتبنّاها في سياق دمج جهود بيرس بجهود دي سوسير، علاوة على الكشف على اقتراحاته فيما يتعلق بالمرجع السيميائي.

ينكّون المنهج المعتمد من ثلاث محطات متداخلة، هي الوصف والتحليل والتأويل، تركّزت الأولى في عرض ورصد المظاهر السيميائية التي تحضر في المتن النقدي لمحمد مفتاح، والثانية في تفكيك هذه المظاهر وتحديد عناصرها ومكوّناتها، والثالثة في تأويل علاقة السيميائيات التي يتبنّاها محمد مفتاح بفلسفة تناغم الكون.

استنبطنا خلاصة مفادها، أن منهج محمد مفتاح منهج تكاملي، أو ما أطلق عليه "السيميائيات التركيبية"، التي تعمل على دمج السيميائيتين الأمريكية والأوروبية، وهي مطعّمة كذلك بالموسيقى بمختلف نظرياتها، واللسانيات بمختلف اتجاهاتها، وغيرها من العلوم المعرفية والاجتماعية؛ فرغم حديثه المطوّل عن العلوم المعرفية والفيزياء والبيولوجيا، إلا أنه يظل سيميائياً في المنشأ والمنتهى، وتحليلاته تعتمد على السيميائيات التركيبية عبر تطويرها وتجديدها - دائماً - بالمفاهيم العلمية المستجدّة. حيث إن محمد مفتاح يعتبر كل شيء علامة دالّة، وهذا ما يجعله يحتفي بالخطاب الأيقوني أيّما احتفاء، كما أن دراسته لأيقونية القصيدة الشعرية هو الدليل على اشتغاله بالسيميائيات منهاجاً وتحليلاً.

بالإضافة إلى أن فلسفة انتظام الكون أصبحت بمثابة عقيدة مطلّقة عند محمد مفتاح؛ إذ من المعلوم أن إدراكاتنا وتصوراتنا للكون وللعالم، تُؤطر هامشاً كبيراً من سلوكياتنا وممارساتنا اليومية، وحتى انحيازاتنا ومواقفنا، كما تُرخي بظلالها على ميادين البحث المتنوّعة والمتشعبّة، فغالبا ما تحضر لدى محمد مفتاح مسلمات وبديهيات تتبع من فلسفة التناغم، والراجح أنها تحجب عنه حقائق أخرى، بحيث يصبح كل ما يُعارضها مقبلاً ودينياً.

الكلمات المفتاحية:

الشعر - المنهج - النقد الأدبي - السيميائيات - التحليل - التأويل



Abstract

In this study, I presented a general conception of the operation of the semiotic approach in the critical text of Mohammad Miftah, by examining the semiotic concepts as procedural tools for questioning poetic discourse and deconstructing its patterns, in addition to clarifying these synthetic semiotics that he adopts in the context of integrating Peirce's efforts with those of De Saussure, moreover to revealing his suggestions regarding the semiotic square.

The approved approach consists of three intersecting stations: description, analysis, and interpretation. The first focused on presenting and tracing the semiotic aspects that exist in the critical corpus of Mohammad Miftah, the second on deconstructing these aspects and identifying their elements and components, and the third on interpreting the relationship of semiotics that Mohammad Miftah adopts to the philosophy of the harmony of the universe.

We derived a basic conclusion that Mohammad Miftah's approach is an integrative one, or what he called "synthetic semiotics"; which tries to integrate American and European semiotics, and it is also conjunct with music and its various theories, linguistics with its various trends, and other cognitive and social sciences. Despite his lengthy talk about cognitive science, physics, and biology, he remains a semiotician in origin and end, and his analyses depend on synthetic semiotics by developing and renewing them - always - with new scientific concepts. Whereas Mohammad Miftah considers everything a significant sign, and this is what makes him praise the iconic discourse. His studies of the iconography of the poetic poem are evidence of his concern for semiotics as a method and analysis.

Furthermore, the philosophy of the orderliness of the universe became an absolute doctrine for Mohammad Miftah. It is known that our perceptions and conceptions of the universe and the world frame a large part of our daily behaviour and practices, and even our biases and positions, and also cast their shadows on the diverse and abound fields of research. We often find in Mohammad Miftah's conception the presence of postulates and axioms that fountain from the philosophy of harmony, and they likely obscure other truths from him, and everything that opposes them becomes abhorrent and vile.

Keywords:

Poetry – Method – Literary Criticism - semiotics - Analysis - Interpretation

1. المقدمة

تُعتبر السيميائيات من العلوم التي أظهرت نجاعتها التحليلية وعمقها التصوّري الذي تصدر عنه، وهذا ما يتبين من مختلف الميادين التي تُسائلها وتُحلّلها، من أنساق أناسية واجتماعية وطبيعية، وحتى كونية؛ بل إن دراسة الكون باعتباره علامة هو الشغل الشاغل في مختلف اتجاهات السيميائيات ومدارسها، أي النظر إلى الموجود باعتباره علامة وصيرورة ومؤشّر، وعن هذا التشابك الذي تُقيمه السيميائيات بين مختلف العلوم ومناحي التفكير، يقول ساندرس بيرس: "ليس باستطاعتي أن أدرس أي شيء في الكون كالرياضيات والأخلاق والميتافيزياء والجاذبية الأرضية والديناميكية الحرارية والبصريات والكيمياء وعلم التشريح المقارن وعلم الفلك وعلم النفس وعلم الصوتيات وعلم الاقتصاد وتاريخ العلم والكلام... إلا أنه نظام سيميولوجي"¹. ويضيف بيرس نفسه مؤكّداً ما سبق قائلًا: "لا نفكر إلا بواسطة الإشارات والعلامات"².

سأحاول في هذه الدراسة تقديم تصور عام حول اشتغال المنهج السيميائي في المتن النقدي لمحمد مفتاح، وذلك بالوقوف على المفاهيم السيميائية التي يحتفي بها، باعتبارها أدوات إجرائية لمساءلة الخطاب الشعري وتفكيك أنساقه، بالإضافة إلى توضيح هذه السيميائيات التركيبية التي يتبنّاها في سياق دمج جهود بيرس بجهود دي سوسير، علاوة على الكشف على اقتراحاته فيما يتعلق بالمرجع السيميائي.

مدار التحليل والنقاش هنا؛ هي نصوص الناقد محمد مفتاح باعتبارها مضغة أو عيّنة من الوضع السيميائي العربي المعاصر عامة والمغربي خاصة، ونخص بالذكر كتبه الثلاثة:

¹ - أعمال ملتقى: "الأدب الجزائري في ميزان النقد (السيميائية والنص الأدبي)"، معهد اللغة والأدب العربي، جامعة عنابة، د. ط، س: 1995، ص 10.
² - Charles Sanders Peirce, collected papers of charles sanders peirce, 8 vols. (Cambridge Harvard university press, 1931- 1958), paragraph 2. 302.

أ- "مفاهيم موسعة لنظرية شعرية- اللغة- الموسيقى- الحركة"، الجزء الأول: مبادئ ومسارات، المركز الثقافي العربي، بيروت- الدار البيضاء، ط: 1، 2010.

ب- "مفاهيم موسعة لنظرية شعرية- اللغة- الموسيقى- الحركة، الجزء الثاني: نظريات وأنساق"، المركز الثقافي العربي، بيروت- الدار البيضاء، ط 1: 2010.

ج- محمد مفتاح: "مفاهيم موسعة لنظرية شعرية- اللغة- الموسيقى- الحركة"، الجزء الثالث: أنغام ورموز، المركز الثقافي العربي، بيروت- الدار البيضاء، ط: 1، 2010.

2. أهداف البحث

تطمح هذه الدراسة إلى تحقيق أهداف متعلقة بالأبعاد السيميائية في خطاب محمد مفتاح، ويمكن تلخيصها في النقاط التالية:

- الإسهام الفعال في النقاش الدائر في مختلف المجالات السيميائية المتعددة.
- وصف وتحليل المنهج السيميائي عند محمد مفتاح قصد تقريبه من القراء والباحثين.
- تتبع مختلف القضايا المرتبطة بالخطاب السيميائي عند محمد مفتاح، ومحاولة الكشف عن مختلف الملابس والحيثيات العلمية والمعرفية والإيديولوجية والجمالية التي فعلت فعلها فيه.

3. أهمية البحث

- كون الدكتور محمد مفتاح من بين ثلة من المفكرين والنقاد الذين يجب شرح وتحليل ومناقشة أعمالهم، ليسهل تناول والاقتراب من خطابهم من قِبَل أكبر عدد من القراء.

- اتصاف المتن النقدي لمحمد مفتاح بقوة تداولية كبيرة وعريضة داخل المغرب وخارجه، خاصة وأن صاحبه أستاذ جامعي له رمزيته ووضعه الاعتباري. من هنا، أهمية الحفر في خطابه وإرجاعه إلى أصوله النظرية.

4. منهجية البحث

يندرج هذا البحث ضمن دائرة نقد النقد باعتباره خطابا يفحص منجزات الخطاب النقدي من حيث عدته المنهجية وجهازه المفاهيمي ومختلف السياقات التي أنتجته. وتتحقق هذه الممارسة انطلاقا من أسس معرفية ومنهجية، بالإضافة إلى فهم عميق ورصين للظاهرتين الأدبية والنقدية معا.

انطلاقا مما سبق، سنتوس آلية المقاربة المنهجية بين الاستقراء والاستنباط بوصفهما آليتين أساسيتين على طول صفحات هذه الدراسة، ليس باعتبار كل آلية منفصلة عن الأخرى أو مفردة لمبحث بقدر ما تتقاطع وتتداخل كلما اقتضت الضرورة المنهجية توضيح فكرة أو الاستدلال عليها والبرهنة عليها أو الاحتجاج بمفهوم ما أو التدليل بسياق معين أو تقويم تصور معرفي أو منهجي.

كما سيركّز المنهج المتبع في هذه الدراسة، على ثلاث محطات متداخلة، هي الوصف والتحليل والتأويل، تتركز الأولى في عرض ورصد المظاهر السيميائية التي تحضر في المتن النقدي لمحمد مفتاح، والثانية في تفكيك هذه المظاهر وتحديد عناصرها ومكوناتها، والثالثة في تأويل علاقة السيميائيات التي يتبناها محمد مفتاح بفلسفة تناغم الكون.

5. إشكالية البحث

يمكن اختزال الإشكالية المؤطرة للبحث في هذا السؤال: ما حدود اشتغال السيميائيات في الخطاب التنظيري

والنقدي لمحمد مفتاح؟

كانت هذه الإشكالية متأتية من اقتناعنا الراسخ بضرورة صياغة الأسئلة المعرفية المركّبة من المشاكل المتصلة التي ترتبط عضويا فيما بينها، ولا تقبل الحلول الجزئية باعتبارها منظومة من العلاقات التي لا تمنح إمكانية حلها

منفردة، فكما يرى باشلار حين يعتبر كل معرفة جواباً عن مسألة، فإذا لم يكن ثمة مسألة لا يمكن أن تكون هناك معرفة علمية، إذ لا شيء ينطلق بداهة، ولا شيء معطى كل شيء مبني³.

تتفرع عن هذه الإشكالية مجموعة من التساؤلات، نلخصها في:

ما مكان الخل في السيميائيات الفرنسية حسب محمد مفتاح؟ وما العناصر التي يطعم بها هذه السيميائيات؟ وما دور فلسفة تناغم الكون في هذا التطعيم؟ وما المداخل العلمية التي يستعين بها لدراسة النسق البصري؟ وما مكونات التوزيع البصري التي يقوم بتحليلها؟

6. الدراسة

6-1 - نقد محمد مفتاح للسيميائيات الكلاسيكية

يُدرِك المَطَّلَع على كتابات محمد مفتاح، أنه باحث سيميائي على مستويين اثنين، الأول يتمثل في الخوض في تنظيرات السيميائيين الذين ابتكروا مدارس قائمة الذات ومناقشته إياهم، والثاني يتمثل في المستوى التطبيقي الذي يعمد إليه أثناء تطبيقه للمنهج السيميائي وأجراته في تشريح النصوص الأدبية عامة، والشعرية خاصة.

يعمد محمد مفتاح، بهذا الخصوص، إلى استثمار العديد من التصورات السيميائية قصد تجاوز مكان الخل والقصور في النظرية السيميائية، فهو "يزاوج (...)" بين السيميائيتين الأمريكية والأوروبية مستمداً منها المفاهيم الملائمة (على نحو التحليل بالمقومات، والتشاكل، والمربع السيميائي، والأيقون والمؤشر، والمؤول، والرّمز، والصور الدلالية اللامنتهية، وخاصة الاستعارة لمقايسة مجال بمجال⁴).

³ - غاستون باشلار: "تكوين العقل العلمي - مساهمة في التحليل النفساني للمعرفة الموضوعية"، تعريب: د. خليل أحمد خليل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط: 1421، 6 - 2001م، ص: 14. بتصرف.

⁴ - محمد الداوي: "تشبيد نظرية شعرية موسعة بمنهاجية سيميائية مركبة"، ضمن كتاب: "نظرية الشعر - قراءات في كتاب: "مفاهيم موسعة لنظرية شعرية"، للأستاذ محمد مفتاح، تنسيق: أحمد بوحسن، ومحمد الوهابي العلمي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة: كراسات الكلية، رقم: 4، مطبعة الأمنية- الرباط، ط 1، 2013، ص 47.

يذهب محمد مفتاح في تأكيده هذا التوجه التركيبي الذي ارتضاه في التعامل مع هذا العلم/ المنهج، إلى القول: "اعتمدنا في تقويمنا وإجرائنا على منهجية سيميائية مركّبة من مجهودات باحثي القارة العتيقة وأمريكا وفضاءات أخرى؛ وأهم سمات هذا التركيب التفكير بالمتّصل، وبالمتقابل؛ بحيث إن هناك اتصالا وتطورا وتدرّجا بين طرفين قد يكونان في غاية القرب، أو في غاية البعد، مما يجعلهما متماسين، أو منفصلين بحاجز أو حواجز؛ في ضوء هذه المنهجية بسطنا بعض الخطاطات المعقّدة، ودحضنا الاستقلالية المتطرّفة، وتجاوزنا الثنائيات الحادة، وتحوّطنا من تطبيق الاختزال بعشوائية، ووسّعنا ما ضيق ليضمّل معطيات متوّعة، وجمعنا بين الاستقراء، والاستنباط، والفرض الاستكشافي، تبعا لما تفرضه المادة التي هي وليدة صيرورة تاريخية شديدة التعقيد"⁵.

6-1-1- نقد المدرسة الفرنسية بخصوص مفهوم التشاكل

عمد محمد مفتاح إلى توطين مكانم القصور في مفهوم التشاكل، خاصة ما يتعلّق بتأصيل المدرسة الباريزية، وهذا ما يتبيّن من قوله: "المدرسة السيميائية الفرنسية الباريزية التي قصّرت على تحليل المضمون أولا، ثم وسّعت ليشمل التعبير أيضا؛ وقد اقترحوا له مفهوما دعوه بـ (التشاكل) ومعناه أن كل مفردة يمكن أن تجزأ إلى سمات ذاتية وسياقية على مستوى المضمون، وإلى تجميع الأصوات والتراكيب المتطابقة والمتماثلة والمتشابهة ليكون هناك تكرر يعكس وحدة المعنى والرّسالة؛ على أن هذا التحليل الذي هو قراءة لترات أرسطو المنطقي واجهته صعوبات كبيرة، وخصوصا في التعبيرات المجازية والاستعارية والأمثولية، مما أدى إلى البحث عن بدائل نظرية أخرى"⁶.

يمكن في هذا السياق تسجيل ملاحظة مُفادها أنه صار من المعروف أن جهود "كريماس" انصبّت على المضمون، وهذا ما نجده بصريح العبارة عند السيميائي الإيطالي أمبرتو إيكو قائلا: "لقد كانت هناك محاولات عديدة من أجل بناء نسق للمضمون. وأكثر هذه المحاولات دلالة (Greimas 1966) تفترض وجود وحدات دلالية أولية

⁵- محمد مفتاح: "مفاهيم موسعة لنظرية شعرية- اللغة- الموسيقى- الحركة"، الجزء الثاني: نظريات وأنساق، المركز الثقافي العربي، بيروت- الدار البيضاء، ط 1، 2010، ص 13، التشديد من عند المؤلف. (أين الصفحة)

⁶- محمد مفتاح: "مفاهيم موسعة"، ج 2، ص 267.

(وهي مقولات ذهنية تتطابق مع مظاهر أساس في التجربة) منتظمة في محاور تقابلية تُسهم في بنائها كل المدلولات. وبهذا يكون كريماس قد انتقى بعض البنيات الأولية للدلالة. ويتعلق الأمر بالمحاور الدلالية⁷.

أشرنا سابقا إلى أن محمد مفتاح بيّن مكان الخل في السيميائيات الفرنسية خصوصا فيما يتعلق بقصورها في النقد الشعري باعتباره خطابا قائما على الإيحاء وضروب من الخيال، وهذا ما جعله يقوم بتعزيزها بالموسيقى وعلوم الأعصاب، والحال نفسه بخصوص مفهوم التشاكل الذي يُعدُّ أحد المفاهيم الأساس في المدرسة السيميائية الفرنسية، حيث انكب محمد مفتاح على نقده كذلك، وهذا ما يُقرِّبه من السيميائيات التركيبية ويُبعِّده عن الانتماء لمدرسة معيَّنة من المدارس السيميائية الكبرى.

إذ عمل محمد مفتاح في أحد كتبه التأسيسية على نقد أحد سيميائيي المدرسة الفرنسية، حيث يقول: "إن هذا التضييق في التعريف هو الذي حدا "براستي" أن يحدّد التشاكل بأنه "كل تكرار لوحدة لغوية مهما كانت"⁸.

نجد هذه المفارقة التي لخصها محمد مفتاح في ثنائية التضييق والتوسيع، أكثر وضوحا في قول سعيد الحنصالي: "من أجل إمكانية وصف تعدّد التشاكل poly- isotopie ينبغي إعادة فحص التعارضات بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي، المعنى الأول والمعنى الثاني، المعنى الظاهر والمعنى الباطن، المعنى الحرفي والمعنى التمثيلي والتي يمكن تجميعها تحت اسم نظرية المعنى المزدوج، والتي تعبر منذ ألفي سنة كل التأمل الغربي حول التأويل"⁹.

6-1-2- نقد بخصوص المربع السيميائي

يعتمد المربع السيميائي على التقابلات لبناء وتشبيد المعنى وتنظيمه، فيمكن اعتباره بمثابة بنية أساسية لتشكيل الدلالة والمعنى النصي والخطابي، علاوة على كونه بنية تمييزية وتعارضية، فتتحدّد المعاني والدلالات بواسطة

⁷ - أمبرتو إيكو: "العلامة- تحليل المفهوم وتاريخه"، ترجمة: سعيد بنكراد، مراجعة: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط 2، 2010، ص 158.

⁸ - محمد مفتاح: "تحليل الخطاب الشعر (استراتيجية التناص)"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط 4، 2005، ص 21. نقلا عن: François Rastier. « Systématique des isotopies », in Essais de Sémiotique poétique, Larousse Paris, 1972. P. 82.

⁹ - سعيد الحنصالي: "الاستعارات والشعر العربي الحديث"، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 2005، ص 144.

التقابلات، إذ "يمثلُ المربعُ السيميائي العلاقات الرئيسية التي تخضع لها - بالضرورة - وحدات المعنى من أجل توليد، ومنح قابلية الظهور للعالم الدلالي"¹⁰.

إن هذا ما يجعل المربع السيميائي قائماً على مجموعة من العلاقات المنطقية: التضاد، وشبه التضاد، والتضمن، والتناقض؛ فالعلاقات القائمة على مستوى التضاد تشكّل ما يُطلق عليه بالمرّكّب، بينما علاقة شبه التضاد تشكّل ما يُسمّى بالمرّكّب المحايد، في حين تُسمّى العلاقة بين المتناقضات بالخطاطة أو الترسيم (schema). وفي السياق نفسه، معلوم أن "ألجيرداس غريماس (Algirdas Greimas) هو الذي صاغه وجعله وسيلة لتحليل الأفاهيم السيميائية المزدوجة بعمق أكبر؛ فيضع خارطة للوصل والفصل بين السمات الدلالية في النص"¹¹.

ترتكز السيميائيات على أوليات منطقية ورياضية، بل - كما يقول محمد مفتاح - إن "المربع المنطقي سمّاه السيميائيون بالمربع السيميائي"¹²، وهذا ما يوضّحه في الصفحة التالية، حين اعتبر اكتمال نظرية التقابلات عند أرسطو بطريقة ذهنية مجردة، ثم جُسمت بعد ذلك في شكل هندسي دُعي بالمربع المنطقي.. أي نقل ما في الأذهان إلى ما في الأعيان أدّى إلى مفارقة: الجمع بين التجريد والتجسيم في آن واحد. وهذا ما يجعل - حسب كريماس وكورتيس - "المربع السيميائي هو التمثيل البصري للتمفصل المنطقي لمقولة دلالية ما"¹³.

نجد إلى جانب منطق التقابلات، إشارات إلى منطق الجهات الذي يُعتبر أساساً مركزياً في المنطق السيميائي، وبهذا الخصوص يقول محمد مفتاح: "إن الاضطراب الحاصل في المربع السيميائي، حدودا وتعريف وعلامات، ونتائج، كان له تأثير كبير في النظرية السيميائية الباريزية بكل مكوّناتها. ولعل أهم ما يتّضح فيه ذلك الاضطراب هو منطق الجهات. وتبنيانه سنتعرّض إلى الجهات التي اهتمت بها النظرية؛ وهي الجهة المنطقية، والجهة المعرفية، والجهة

¹⁰ - Groupe d'entrevernes : « Analyse sémiotique des textes- Introduction- Théorie- Pratique », Presses Universitaires De Lyon, 1979, 6^{ème}Ed, 1988, p . 132.

¹¹ - دانيال تشاندلر: "أسس السيميائية"، ترجمة: د. طلال وهبه، مراجعة: د. ميشال زكريا، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط 1، تشرين الأول (أكتوبر) 2008، ص 182، نقلا عن: Algirdas Julien Greimas, On Meaning : Selected Writings in Semiotic Theory, Open Linguistics Series, Translation by Paul J. Perron and Frank H. Collins; Foreword by Frederic Jameson, Introduction by Paul J. Perron (London : Pinter, 1987), p. 49.

¹² - محمد مفتاح: "مفاهيم موسعة"، ج 2، ص 16، التشديد من عند المؤلف.

¹³ - محمد مفتاح: "مفاهيم موسعة"، ج 2، ص 17، نقلا عن: A. J. Greimas. J. Courtés. Sémiotique. Dictionnaire raisonné de la theorie du langage, Hachette Université, 1979, et Tom 2, Hachette, 1986. pp. 29- 33.

المعيارية، وجهة الحقيقة، بدون النظر في جهات أخرى مثل الجهة الزمنية، وجهة الرغبات، فلنبق في سجن الأربعة مع هذه المدرسة: حدود أربعة، وجهات أربع...¹⁴.

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن استنادا إلى قول محمد مفتاح هو: لماذا سكت عن جهات وناقش أخرى؟

يقدم محمد مفتاح توضيحات مهمة في سياق تحديده للجهات المنطقية المذكورة أعلاه، فالجهة المنطقية عند أرسطو هي: جهة الضرورة، وجهة الإمكان، وجهة الاستحالة، ومحمولها هو الفعل: "وجب"، أضاف السيميائيون جهة الاحتمال. والجهة المعرفية، جهاتها هي: اليقين، والاحتمال، والاستحالة، والوهم. والجهة المعيارية، جهاتها هي: الوجوب، والمندوب، والمباح، والمحرم، وهي عند القدماء ست جهات هي: الوجوب، والمندوب، والمباح، والمحرم، والمتردد والمكروه. يذهب محمد مفتاح إلى أن "كريماس" و"كورتيس" سجنا الجهات في العدد أربعة، وهذا هو الذي جعلهما يُغفلان توسيع القدماء الجهات لست جهات. بالإضافة إلى جهة الحقيقة القولية، التي يشير بصددها إلى رفض القدماء للثنائية: الصدق/ الكذب، واقتراحهم درجات من المعرفة وهي: الحقيقة المطابقة أو العلم الصادق، والحقيقة النسبية نظريا وعمليا، والباطل، والكذب الصراح، غير أن النظريات الحديثة والمعاصرة المنطقية والسيميائية فضلت الحديث على أن كينونة الكينونة لها درجات الوجود الآتية: الكينونة والظهور واللاظهور واللاكينونة...¹⁵.

يُضخ محمد مفتاح السيميائيات الفرنسية للنقد بعد أن راهنت عليها أعماله السابقة واتخذتها دعامة للتنظير، تجسد هذا النقد من خلال "الحرص على إبراز حدود المربع السيميائي الذي سبق لمحمد مفتاح أن عوّل عليه واحتفى به في أكثر من كتاب. انطلق مفتاح في هذا المسعى النقدي من العودة إلى المربع المنطقي الذي يسند المربع السيميائي. وذلك بالحفر في الإرساء الأول لهذا المربع لدى الإغريق قبل أن يشهد مسارات متشعبة في ثقافات أخرى. وقد تكشّف له، انطلاقا من الحفر الذي أنجزه، أن التقابلات لا تنحصر في أربعة حدود، أو ما أسماه "سجن الأربعة"، و"سجن السجن"، الذي أبرز مفارقات ومآزق المنهاجية الأوضوعية الاستنباطية وطابعها الاختزالي"¹⁶.

¹⁴- محمد مفتاح: "مفاهيم موسعة"، ج 2، ص 18.

¹⁵- محمد مفتاح: "مفاهيم موسعة"، ج 2، صص 18-19-20-21. بتصرف.

¹⁶- خالد بلقاسم: "البناء النظري عند محمد مفتاح واستراتيجية التوسيع"، ضمن كتاب: "نظرية الشعر - قراءات في كتاب: "مفاهيم موسعة لنظرية شعرية"، للأستاذ محمد مفتاح"، ص 187. بتصرف.

رغم تجاوز المدرسة الفرنسية الثنائية سواء اللسانية أو العددية، والثلاثية القديمة التي هي عصب فكر أرسطو، إلا أنها حُبست نفسها في العدد أربعة. وبهذا، فإن المربع السيميائي يتكوّن من أربعة حدود، وهذه الحدود تجمع بينها علاقات: التناقض، التضاد، شبه التضاد، التداخل إثباتاً أو نفيًا، وهذا ما جعل محمد مفتاح يعتبر المربع السيميائي يتخبّط في مشاكل كثيرة: وخاصة ما يتعلّق بحدود الحدود، وبأجيالها وعلائقها، وهذه المآزق أرجعها محمد مفتاح إلى تكوين "كريماس" و"كورتيس" الرياضي، خاصة الرياضيات الكارثية دون اطلاع كاف على التراث الإنساني، وخاصة الميراث المنطقي الأرسطي. ودليل هذا اضطرابهم في تحديد موقع الحد المركب والحد المحايد¹⁷.

6-2- عناصر لسيميائيات معاصرة

توسّل محمد مفتاح بالمفاهيم الثلاثة: الاتصال والتدرج والتحرّكية، لسدّ ثغرات المدرسة الفرنسية، ولمحاولة اقتراح نموذج سيميائيّ معاصر أكثر ملاءمة لموضوع "الشعر" نظريًا ومنهجياً، وهذه المفاهيم توطّرها نظرية فلسفية، وخلفية معرفية تقول بانتظام وتناغم كل ما في الكون. وسنقوم بتوضيح كل مفهوم على حدة.

6-2-1- مبدأ الاتصال

يُعتبر مبدأ الاتصال من المبادئ التي تقول بها نظرية تناغم الكون، فكل شيء متّصل ومتربط، وفي هذا الصدد نلفي محمد مفتاح يقول: "ومعناه أن الكون عبارة عن اتصال، وكل اتصال يعبرّ عنه بالبرزخ. وفي التاريخ يعبرّ عنه بالحقبة"¹⁸. ويُضيف قائلاً: "تقتضي وحدة النشأة أن يكون هناك اتصال، وانفصال بين كل من، وما في الكون، وما يصدر عنه؛ والنص من "المصدورات"؛ فهو، إذن، يقع تحت المبدأ الآتي: "كل شيء في هذا الكون يتّصل بكل

¹⁷ محمد مفتاح: "مفاهيم موسعة"، ج 2، لمزيد من الاطلاع يمكن العودة إلى صص 21-22-23-24-25-26-27، التي يقدم فيها نماذج للمربع السيميائي والمآزق التي تعرّضه وتعرّقله.

¹⁸ تعقيب محمد مفتاح، ضمن كتاب: "نظرية الشعر- قراءات في كتاب: مفاهيم موسعة لنظرية شعرية"، للأستاذ محمد مفتاح، ص: 217.

شيء"؛ ووسائل الاتصال في النص تكرر الأصوات، والمفردات، والأدوات الإشارية، والمحيلة (أسماء الإشارة)، والضمائر و"ال"، والتشبيه والاستعارة، والزمان، والمكان¹⁹.

يمكن اعتبار هذا الفهم القائل بالاتصال هو ما يجعله ينسجم مع خطابه النقدي، فالقول بالتناغم والاتصال والوحدة على المستوى الفلسفي والعقدي، يتلاءم مع البحث عن أدوات الالتحام والاتساق في الشّعر باعتباره جزءاً من الكون، وباعتباره أيضاً، يقوم بتنظيم هذا الكل الكوني بواسطة أدواته، التي هي "اللغة".

يعمل محمد مفتاح على المحاججة والانتصار لهذا القانون الذي يعتبره بمثابة ناموسٍ مُخضعا كل شيء من فكر وتاريخ وثقافة لسلطانه، فيأخذ مسؤولية الرد على المشكّكين في فرضية الاتصال الكوني، وهذا ما يظهر جليا في قوله: "يرفض بعض الناس هذه الحلقة المفرغة التي تجعل كل ما في الكون يتّصل، ويعود إلى حيث الواقع الذي ابتدأ منه؛ لكنها تقترح آفاقا غير محدودة، وغير متناهية، وغير حتمية، كما كان يرى كثير من الحكماء السالفين، ومن المعاصرين، كالشعراء، والعلماء، والمجذوبين، والحالمين"²⁰.

يَعتبر محمد مفتاح مفهوم الاتصال مسلِّمة، وشيئا بدهيا وجب استثماره في الدِّراسة التحليلية للنصوص الشعرية؛ وغير خاف، ما لهذا المفهوم وباقي اشتقاقاته اللغوية من تجذُّر وترسُّخ عند مختلف الحضارات والأمم، خاصة القديمة والوسيلة منها، بل إن محمد مفتاح يذهب إلى أن الاتصال أساس الوجود ككل، وهذا ما أدّى به إلى القول: "إن كل ما في الكون عبارة عن متصل يُقَطَّع إلى أجزاء"²¹.

يكمن الإشكال الأساس، في هذا الاتصال المطلق الذي يقول به محمد مفتاح - حسب رأبي - في أن نقطة مركز كافة الاتجاهات والخطوط هي نقطة تلاشي تلك النقط، أي بمعنى من المعاني الانصهار التام. وبهذا فإن فكرة تناغم الكون تنتفي ضمنها كل العلامات، والمواقف والتعابير... حيث تُصبح غير دالة، وتمّحي حمولاتها الذاتية بما

¹⁹ محمد مفتاح: "مفاهيم موسعة لنظرية شعرية- اللغة- الموسيقى- الحركة"، الجزء الثالث: أنغام ورموز، المركز الثقافي العربي، بيروت- الدار البيضاء، ط 1، 2010، ص 133.

²⁰ محمد مفتاح: "مفاهيم موسعة"، ج 3، ص 299.

²¹ محمد مفتاح: "مفاهيم موسعة"، ج 2، ص 30.

هي إلحاق بمركز يبتلع كل شيء، وبالتالي فقدان الأشياء لاستقلاليتها الذاتية وخصوصيتها الوجودية والإبستمية، لأنها مجرد أعراض وقشور مقارنة بالجواهر المتمثل في فكرة تناغم الكون واتصاله.

علما أنه لا تكون استحالة ولا اتصال إلا إذا تُوفّرت للعناصر قابلية سببية، تسمح بإجراء وصف مقومات المناسبة والمنافرة؛ ولذلك يقوم التساند بينها على أساس الارتداد الناتج عن تفاعلها. فالحرارة يمكن أن ترتدّ برودة، واليبوسة رطوبة، لكنها مجرد ظواهر، وخواص للشيء المادي الذي يتّسم بالقابلية العرضية، إن التغير في الأشياء رهن باختلاف طبيعتها²²، وهذا ما يجعل العناصر مختلفة جوهرا ومتوافقة عرضا عكس ما يقول به محمد مفتاح.

6-2-2- مبدأ التدرج

فيما يتعلق بمبدأ آخر، وهو مبدأ التدرج، فإنه يمكن القول إن الإنسان العاقل دأب منذ القدم على تحديد الوجود بما هو الفضاء الذي يوجد فيه، وباعتباره المأل الذي قد يصير إليه، وأي تصور يجب أن يبسط الكل المتنوع ليسهل ترسيخه وإقراره بما هو حقيقة أو قريب من الحقيقة على مستوى التمثلات والتصورات. وبالتالي، ضرورة التفكير في ترتيب لعناصر الوجود وفق تقسيمه إلى عوالم منها المرئي ومنها المجرد ومنها الماورائي، ومما وصلنا من العصور القديمة للتصنيف البشري، التقسيم الذي يقضي بوجود عالم الروحانيات - وعالم الأفلاك - وعالم العناصر - وعالم المكونات... وغيرها.

ومن ذلك، أن هذا الاصطلاح أُطلق "في البداية على تدرج أجواق الملائكة، أو تدرج العقول السماوية، ثم أُطلق بعد ذلك على تدرج مختلف الوظائف الكنسية. ويُطلق التدرج في اصطلاحنا على ترتيب الأشخاص، الأفكار أو الأشياء، بحيث تتفاوت مراتبها أو قيمها، أو تخضع بعضها لبعض"²³.

وفي إطارنا المخصوص الذي ينبري للكشف عن مواطن مبدأ التدرج الذي يأخذ به محمد مفتاح، في إطار مساءلته للخطاب الشعري باعتباره أحد منظّمات الوجود الكوني، وأداته ووسيلته المثلى في ذلك هي اللغة بما هي

²² عز الدين الشنتوف: "التساند أو الانتظام المضاعف"، ضمن كتاب: "نظرية الشعر - قراءات في كتاب: "مفاهيم موسعة لنظرية شعرية"، للأستاذ محمد مفتاح"، ص 120. بتصرف.

²³ جميل صليبا: "المعجم الفلسفي- بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية"، ج 1، دار الكتاب اللبناني، بيروت- لبنان، د. ط، 1982، ص 265.

استعارات تُقايِس عناصر الوجود بعضها على بعض ليتحقَّق التواصل والإبداع في آن، ففي سياق حديثه عن مبدأ التدرج القائم في الشعر المعاصر، وعلاقة الاستعارة بمكوّنات الكون، يذهب إلى أن هذا التدرج "فرض نفسه بالأعراف، والتقاليد، وكثرة الاستعمال؛ وحينما يكثر تداول ما يوجد في الشعر المعاصر من تراكيب تظهر غريبة الآن، فإنها تصير مألوفاً، لأن مضمون اللغة نموذج أعلى، ما دام يُعبّر عن الأفعال، والأحوال، والأوضاع البشرية نفسها، مهما اختلف الزمان والمكان. يظهر هذا في المفردات التي فرضت نفسها، فصارت رموزاً؛ تلك هي المشتركات البشرية، مثل الليل والنهار، والشمس، والقمر، والبرّ، والبحر؛ وتلك هي المآثرات الثقافية، مثل السيل، والطوفان، والزواج، ومثل الضروريات، والحاجيات، كالأكل، والشرب، والجماع، والتدين، واللغة، والأنغام"²⁴.

يتوافق هذا القول الأخير لمحمد مفتاح إلى حد بعيد مع ما قال به يوسف كرم فيما يتعلّق بقضية التدرج، حيث يقرّر بأننا "نشاهد ترتيباً للموجودات فيما بينها: فالحركات السماوية آية في الانسجام، والألفة الكيميائية آية أخرى، فكأن العناصر الطبيعية يختار كل منها ألفياً، وبمقدار محدّد، فتوجد عنها نفس المركبات. والأرض بينها وبين الشمس مسافة تُتيح للحياة الوجود والنمو، والتربة تركيبها ضامن لغذاء النبات والحيوان، وتركيب الهواء يجعل بعضه صالحاً للنبات وبعضها آخر صالحاً للحيوان، فيشهق هذا ما يزرع ذلك، بحيث لولا النبات ما عاش الحيوان، وثمة أمثلة عديدة لا تُحصى إلا بإحصاء العلوم، فإن كل علم عبارة عن ترتيب ما، وبين العلوم ترتيب وترابط، والذين يستهينون بالترتيب، محتجّين بما يبدو من إخلال به، يسلمونه من حيث لا يريدون؛ إذ ليس يعتبر النقص كذلك إلا بالقياس إلى غاية"²⁵.

تجد هذه السُّلمية أو التراتبية منبعها في فلسفات وتصورات الشعوب القديمة، شرقية كانت، أم غربية، مع كل ما صاحب هذه التقسيمات من توصيفات ثقافية وجمالية وعقائدية، وهناك من يرى أن سلسلة الوجود مفهوم مستمد من أفلاطون وأرسطو، وطوّرت المابعد أفلاطونية، وهو سلسلة أو رسم متدرّج بالتفصيل يقمّ بناء هرمياً دينياً متسلسلاً لكل

²⁴- محمد مفتاح: "مفاهيم موسعة"، ج 3، ص 221، التشديد من عند المؤلف.

²⁵- يوسف كرم: "العقل والوجود- دور العقل في إدراك الموجودات"، إعداد وتحقيق: محمد ثابت، منشورات البندقية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط 1، 2018، ص

الأجسام والكائنات الحية، تبدأ السلسلة بالله ثم الملائكة ثم الشياطين ثم النجوم فالقمر فالملوك فالأمراء فالنبلاء ثم الإنسان ثم الحيوانات البرية فالأشجار والنباتات الأخرى ثم الأحجار الكريمة والمعادن النفيسة، وغيرها²⁶.

يؤكد محمد مفتاح على أن المنطق المتدرج ليس بديلاً نهائياً للمنطق الثنائي، وإنما هو تعزيز له للتغلب على تعقّد الحياة وديناميتها ومشاكلها المستجدة، فنواته موجودة عند الرواقيين وأرسطو ولدى الفلاسفة المسلمين القدامى، أُعيد له شبابه وعنفوانه منذ سنوات الثلاثين من القرن العشرين، فتجلى في حساب شبه المجموعات، ثم بلغ أوجّه من الاكتمال عند لطفي زيادة، ووصل إلى درجة العقيدة عند صديقه بارط كوسكو المختص في الهندسة الكهربائية، وفي هذا السياق، يقول: "إن منطق التدرج يتحرّك في فضاء المنطق الثنائي القيم الذي هو الطرفان المتقابلان، وإن مجالاته هي العلوم الدقيقة والمواقف الحاسمة؛ ومن حيث الوضع كذلك، فإن من المبالغة المؤدية إلى الأخطاء الشنيعة الزعم بأن هذا المنطق انتهى، لأن الحياة البشرية لم تنته؛ كما أن المنطق المتدرج هو لب الحياة بتعقيدها وحركياتها، فهو متداخل متحرك"²⁷.

يتجاوز المنطق المتدرج - حسب محمد مفتاح - المنطق الثنائي (0/1)، وكذا المنطق الثلاثي (الصدق/الكذب/ليس بصدق ولا بكذب)، ويتجاوز كذلك نظرية النسبة المتأسّسة على القسمة والنسبة والتناسب، بل حتى منطق أرسطو غير الرياضي الموجود في كتب السياسة والأخلاق، وأحوال النفس. ومن هذا المنطلق، يشير إلى أن المنطق غير الثنائي القيم "يمكن أن يُعتبر أساساً لمنطق الاتصال، أو التداخل، أو المنطق الغامض، أو المائع... أو المنطق المتدرج"²⁸.

يُستفاد من هذا، أن محمد مفتاح استجلب هذا النوع من المنطق لغرضين اثنين أساسيين، يتلخّص الأول في طبيعة هذا المنطق المرنة التي تقول بالشيء وضده في آن، وهذا ما يمنحه قوة وفعالية في استنباط الأحكام من القضايا الاجتماعية والثقافية التي يعجز البت فيها وفق منطق "إما وإما"، وذلك لانسيابية الحياة وديناميتها وحركيتها الدائمة،

²⁶ - روجر فاوولر: "النقد اللساني"، ترجمة: د. عفاف البطانية، مراجعة: هيثم غالب الناهي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت- لبنان، ط 1، تشرين الثاني (نوفمبر) 2012، هامش ر: 3، ص 393. بتصرف.

²⁷ - محمد مفتاح: "مفاهيم موسعة"، ج 2، ص 32.

²⁸ - محمد مفتاح: "مفاهيم موسعة"، ج 2، ص 31.

والسبب الثاني يتمثل في قدرة هذا المنطق على احتواء المتناقضات والمتضادات وتدرجها وفق درجات متفقة من حيث النوع، وهذا ما يتماشى مع نظرية تناغم الكون وتدرجه.

هذا التدرج أو السلمية يُعبر عنه أحد رواد المنهج السيميائي العالمي، وهو كريماس، حيث يقول: "ذلك أن السيميائيات مشروع علمي مدرج ضمن "سلمية إنسانية"، ويجب أن تظل كذلك لكي لا تفقد روحها، وهو أمر عادة ما ننساه: فإذا كنا نُدرِك عالم الحسيّ باعتباره مجموعة من الآثار المعنوية، فهناك ما هو أبعد من الجزئيّ والذريّ الخ، ومصدره شكل يكفّ عن أن يكون سيميائياً، ليصبح علمياً بحصر المعنى. ويمكن أن نحصل داخل التناول السيميائي، ومن خلال تغيير المسافة الإبستمولوجية لملاءمة النظرة، انطلاقاً من الظواهر ذاتها، على صور مختلفة: تنويعات وتقلبات على مسافات بعيدة، تصنيف مقولي وتكييف بمسافات قريبة؛ ولكن سيظل هناك، في النظرة السيميائية، أفق لا يمكن تجاوزه، ذاك الذي يفصل بين "عالم الحس" و"عالم الكينونة"²⁹.

6- 2- 3- التحركية

ثالث هذه العناصر الأساسية في هذه السيميائيات التي يُريد محمد مفتاح تشكيلها هو عنصر التحركية، الذي كان - كما يشير محمد مفتاح - يُطلق عليه قديماً "الاستحالة". إن هذا الاعتماد على مفهوم التحركية كان الغرض منه هو الخروج من فكرة الدورية العقيمة التي كانت مُسيطرّة على التنظير البشري لعصور من الزمن، وعلاقة بهذا، نجده يقول: "إن هذه الدورية المُبتدلة أنهضت ضدها بعض السيميائيين المُنتهين إلى المدرسة، فتبنوا تحركية فوضوية مستعنيين بمفاهيم نظرية الكوارث؛ مثل كارثة الصّراع التي تعني الانشطار الثنائي، وكارثة التشعب العادي الذي يتعدّى الثنائية، وكارثة التشعب الفراشي؛ ومن المفروض أن ينتج عن الانشطار والتشعب صيرورة غير خطية متوقّفة، لكن حديثهم عن "الامتزاج السكوني" يعني الرجوع إلى الدورية، لكنها دورية معقّدة؛ يقع الانشطار من الحد المحايد ثم يستمرّ

²⁹ - ألبيرداس. ج. غريماس وجاك فوننتيني: "سيميائيات الأهواء - من حالات الأشياء إلى حالات النفس"، ترجمة وتقديم وتعليق: سعيد بنكراد، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت- لبنان، ط 1، آذار/ مارس/ الربيع 2010، صص 369-370.

ينمو، يمينا ويسارا، إلى الامتزاج في الحد المركب؛ وبهذا المنظور حل الإشكال الذي أرقّ كَرِيماص وغيره، ألا، وهو موقع الحدود وعدّها³⁰.

إن كل شيء في حركة، وإن كل شيء يتحرك، وإن كل شيء يمكن تحريكه، هذه هي أطروحة محمد مفتاح بخصوص الحركة، حيث يذهب إلى اعتبار: "الحركة أهم مرتكزات الميكانيكا والفيزياء، والبيولوجيا، والعلوم الاجتماعية، والإنسانية. كل شيء يتحرك من تلقاء نفسه حين تكون له طاقة داخلية فينتقل في الفضاء أو في الزمان أو في الأحوال؛ وأوضح الأمثلة على هذا الآليات المدفوعة ذاتيا، السيارات والقاطرات، والنصوص اللغوية، والفئات الاجتماعية، والأحوال الجسدية والروحية"³¹.

في هذا النقاش الذي ألمح إليه محمد مفتاح في القول الأخير، والذي يقرّ بإمكانية التحرك الذاتي للمادة أو الفكرة، فإنه يكون قد حسم مع التصور الأرسطي للحركة التي لا بد أن تنتج عن محرّك، فلم تعد الحركة تابعة دائما لمحرّك، يحرك هذا الأخير مُحرّكا آخر، إلا أن هذا الأمر - حسب تصور أرسطو - لا يسير بتتابع غير متناه، بل لا بد أن تقف الحركة عند المحرّك الأول؛ فإذن الحركة مرتبطة بمسألة أساسية عند أرسطو وهي: وجود محرّك. وفي هذا الصدد، يقول المعلم الأول: "ولما كان المتحرك إنّما يتحرك عن شيء فواجب ضرورة أن يكون كل متحرك أيضاً في مكان فإنما يتحرك عن غيره. والمحرك أيضاً يتحرك عن شيء آخر. لأنه هو أيضاً متحرك. والآخر بدوره متحرك عن آخر. إلا أن ذلك ليس يمرّ بلا نهاية، بل لا بدّ من أن يقف عند شيء ما هو أولاً سبب الحركة"³².

يحتل مفهوم الحركة مكانة عظمى في الواقع البشري، وفي مختلف أنشطته وسلوكاته، علما أن هذا المفهوم هو الذي تُؤسّس عليه النظريات الكبرى في مختلف المجالات العلمية والفنية، ويكفي أن نشير إلى مفهوم الدينامية وما له من علاقة بمفاهيم مصاحبة له، من قبيل التغير والتحول والاستمرارية والتطور والانبعث المتجدّد أو المنحرف عن

³⁰ - محمد مفتاح: "مفاهيم موسعة"، ج 2، ص 33، ولمزيد من التوضيح حول هذه الأشكال من الانشطارية التي تم ذكرها، يمكن العودة إلى الهامش ر: 43، من الصفحة نفسها.

³¹ - محمد مفتاح: "مفاهيم موسعة لنظرية شعرية- اللغة- الموسيقى- الحركة"، الجزء الأول: مبادئ ومسارات، المركز الثقافي العربي، بيروت- الدار البيضاء، ط 1، 2010، ص 57.

³² - أرسطو: "كتاب الطبيعة"، ج: 2، ترجمة: اسحاق بن حنين، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 2، د.ت، ص 735.

مسار ما، أو لتوجيه حركة ما، وبهذا الخصوص، يُوجزُ محمد مفتاح في فقرةٍ أموراً كثيرة متعلّقة سواء بالحركة أم بالتحرك أم بالتحريك، حيث يُصرِّح:

"على أن ما نريد أن ننبّه إليه، هو أننا، ونحن نتحدّث عن علم الحركة والتحريك ونوع الحركة، نسعى إلى التماس ذلك في اللغة وفي الموسيقى، وفي الشعر، والشاعر، لأن اللغة، أصواتا ومفردات وتراكيب، محكومة بالزمن؛ ومن الأسس المكوّنة للموسيقى الزمن، والشعر موسيقى، والشاعر بمثابة قائد الجوقة، أو العازف المنفرد؛ اللغة والموسيقى والإنشاد وقيادة الجوقة، أفعال وأعمال تتم في فضاء معين؛ وعليه، فإن هناك حركة تتم في، زمان - فضاء، بتلقائية أو بالدفع؛ وإذا سلّمنا بهذا، فإن قوانين النص اللساني هي قوانين الفيزياء. قد يظهر لبعض القراء أننا عسّرنا الأمر أكثر مما هو مطلوب في تحليل الخطاب، لكننا إذا كنا نبحث عن القوانين المجردة الجامعة، ثم القوانين الخاصة، فإن هذا الصنيع شائع في ميدان البحث العلمي، ويسمّى بالاختزال النظري أو الرد؛ أي بناء نظرية أو صياغة مجموعة قوانين في مجال على أسس نظرية وقوانين قارة في مجال آخر"³³.

حاول محمد مفتاح في إشارة مهمة وذكية عدم إغفال المناحي الفوضوية والعبثية للحركة ومآلاتها، ومن هذا قوله: "التوليف والتنظيم وتحصيل المعارف محكومة بمبدأ المبادئ الذي هو الحركة الطبيعية الأصلية التي هي سابقة على كل شيء بحسب المعتقدات العلمية السائدة؛ لهذا، فإن الحركات العينية للأشياء والأشخاص فرع منها؛ سواء أكانت فطرية أم مكتسبة أم مصنّعة؛ كل شيء يتحرّك في زمان - فضاء، بقطع النظر عن أنواع الزمان، وضروب الفضاء؛ وقد تتم حركته بكيفية متصلة سلسلة، وقد تحصل بكوارث وفوضى، مثل حركات الرقص، وحركات الجيش الاستعراضية، وإنشاد الشعر... وحركات البراكين، والزلازل، والثورات الاجتماعية"³⁴.

نخلص إلى أن مفهوم الحركة من المفاهيم الأساس في إنتاجات كبار المفكرين والعلماء؛ من فلاسفة وحكماء اليونان القديمة مروراً بمختلف الإبداعات والابتكارات في مختلف الحقب وعند مختلف الحضارات، وصولاً إلى الزمن الحديث والمعاصر حيث استأسدت الحركة والمفاهيم المصاحبة لها، وخفت بريق فكرتي السكون والثبات. يسير محمد

³³ - محمد مفتاح: "مفاهيم موسعة"، ج 1، صص 57-58.

³⁴ - محمد مفتاح: "مفاهيم موسعة"، ج 1، ص 179.

مفتاح في إثر أولئك العلماء والمفكرين، عبر إقامة مشروعه على دعائم ثلاث (اللغة- الموسيقى- الحركة)، تأتي الحركة في مقدّماتها.

نختم هذا المبحث بقول لجيل دولوز يؤكد فيها على هذه المكانة الراقية التي تحتلها الحركة في علاقتها بالزمن:

"لقد سعت الثورة العلمية الحديثة إلى إرجاع الحركة، لا إلى لحظات أثيرية، بل إلى لحظة عادية جدا. حتى ولو شكّلنا الحركة من جديد، فإننا لا نفعل ذلك انطلاقا من عناصر شكلية خارقة (الوضعيات) بل من عناصر مادية محايثة (المقاطع). وبدلا من القيام بتوليف معقول للحركة، نحللها تحليلا حسيا. وهكذا تشكّل علم الفلك الحديث من خلال تحديد العلاقة بين المدار والزمن اللازم لقطعه (كيبيلر (Kepler))، وتشكّلت الفيزياء الحديثة من خلال ربط المسافة التي يجتازها جسم من الأجسام بالزمن الذي يستغرقه سقوط هذا الجسم (غاليليه (Galilée))، وتشكّلت الهندسة الرياضية باستخلاص المعادلة لخط منحنٍ مسطح، أي بوضع نقطة على مستقيم متحرك في لحظة من لحظات مساره (ديكارت (Descartes))، وتشكّل أخيرا الحساب المتنامي الصّغر عندما ارتأى بعضهم النظر في المقاطع التي يمكن تقريبها إلى ما لا نهاية (نيوتن (Newton) ولايبنيز (leibniz)). ففي كل مكان، كان التعاقب الآلي للحظات يحلّ محلّ النظام الجدلي للوضعيات: "يجب على العلم الحديث أن يتحدّد وخصوصا بتوقه إلى اعتبار الزمن متغيّرا مستقلا"³⁵.

6-3- المدخل العلمي لدراسة النسق البصري

ينفتح محمد مفتاح على العلوم المعرفية لتعزيز سيميائياته المقترحة، وسأتي في هذا المبحث على ذكر المكانة الجوهرية التي يحتلها النسق البصري في النتاج الفكري لمحمد مفتاح، ومنه؛ احتكامه لأكثر النظريات جِدة في المجتمع العلمي والتي تُعنى بكيفية اشتغال حاسة البصر بيولوجيا وعصبونيا، مثل ما استنتجه من مناقشاته لكتاب "د. مار"، وبهذا الخصوص، نجده يقول: "معنى ما تقدّم أن الإدراك لا يحصل دفعة واحدة، لكنّه يمرُّ بمراحل ثلاث؛ أولاها تكتفي بتأمل ابتدائي للأشياء من حيث هي، لكن ما تدعو الحاجة إليه يجذب الانتباه إليه فيقع التركيز عليه فننتقي منه

³⁵- جيل دولوز: "سينما الصورة- الحركة"، ج 1، ترجمة: د. جمال شحيد، مراجعة: د. نبيل أبو مراد، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، نيسان، ط 1، أبريل 2014، ج 1، صص 19-20. القولة الأخيرة لبرغسون.

عناصر وتُغفل أخرى؛ وثانيتها رؤية سمات ما انتُقي الشكلية، واللونية، والحجمية، والتوجهية، والموقعية، بالنسبة لغيره من الأشياء من جهة، وللرائي من جهة ثانية، وثالثتها النظر إلى ما أدرك بكيفية موضوعية مستقلة عن الملاحظ لضبط بنية المرئي ووظائفه وخواصه؛ أي أن هناك إدراكا فطريا يجب أن يُحصَّن بإطار نظري، وعمليات إجرائية وموضوعية³⁶.

يستقي محمد مفتاح أقواله من أناس مشهود لهم بطول الدربة والتجريب فيما يخص مسائل الإدراك من مداخل بيولوجية وعصبونية، ومنه الإتيان بتصوير أريبب مار وتايلر برج في نظريتهم المجزئية المرنة، التي تعتبر أن "النسق البصري مرّن يعتمد على المجزوات من جهة، وعلى تأثير المعارف والمعتقدات من جهة ثانية"³⁷، وهذا ما يُعصّده بقول آخر، يذهب فيه إلى أن "المجزئية واقع لا يُمكن جوده، لكنها تُخرقُ بالنسق البصري الذي هو مرّن يتأثر بالمعارف الخارجية"³⁸.

طلبا للاستزادة في الفهم، والاقتراب أكثر من تصور محمد مفتاح فيما يتعلّق باشتغال النسق البصري، سنورد قوله الذي يصرّخ فيه أن "عملية الإبصار (...) ليست معطاة ومدركة لأول نظرة، لكنها تشييدية تدريجية، لأن الشيء إذا أُريد إدراكه يحلّل إلى مكوناته، وعناصره، ثم يُنتقى بعضها فيركّب مع غيره بحسب ما تقتضيه البنية، أو الوظيفة أو الغاية المعرفية؛ إنها عملية تحليل وتركيب؛ إنها تشييد وظيفي"³⁹.

وبعد تقديمه - بشكل مقتضب - "لنموذج الزمرة" الذي يستخدم الاستراتيجية التصاعدية، و"نموذج الأثر" الذي يُعوّل على الاستراتيجية التنازلية، باعتبارهما النموذجين الأشهرين للتعرف والتنبؤ، يأتي بقول هو بمثابة خلاصة لمراحل تعرف الصوت واستكشاف المرئي جزئيا أو كليا، إذ يقول:

"يتلخّص من كل ما تقدّم أن هناك ثلاث دوائر؛ دائرة الإحساس والإدراك التي فيها وجود كفيات وحركات وصور وكتابة، ودائرة التعرف التي تحتوي على التعرف والفهم والتأويل؛ ويربط بين الدائرة الأولى والدائرة الثانية الاستدلال،

³⁶ محمد مفتاح: "مفاهيم موسعة"، ج 1، صص 26-27.

³⁷ محمد مفتاح: "مفاهيم موسعة"، ج 1، ص 28.

³⁸ محمد مفتاح: "مفاهيم موسعة"، ج 1، ص 37.

³⁹ محمد مفتاح: "مفاهيم موسعة"، ج 1، ص 27.

وبين دائرة التعرف ودائرة العمل التخطيط؛ وإن شئنا أن نعبر بكيفية أخرى فإننا نقول: هناك دائرة المداخل، ثم دائرة المعالجات الدماغية الذهنية، ثم دائرة المخارج؛ ويُعبّر عن مراحل هذه الدوائر بالمفاهيم الآتية: تحليل السنن، ثم الإدراك، ثم التعرف، ثم الفهم، ثم التأويل، ثم التخطيط، ثم العمل، ثم الإنتاج، ثم تقنين الإنتاج، ثم نقله إلى حقول متنوعة؛ كما أننا إذا أردنا أن نستعير لغة الأطباء، فإن التعبير يكون كآلاتي: مستوى فيزيولوجيا الإحساس، ثم الاستجابة الفيزيولوجية، ثم مستوى تسجيلها، ثم مستوى توزيعها داخل الدماغ، ثم مستوى معالجتها⁴⁰.

4- التوزيع البصري للقصيدة

نجد شكل الكتابة من الأمور الشكلية التي تحظى بعناية محمد مفتاح، وهذا ما يدخل في التوزيع البصري للقصيدة، حيث يذهب إلى أن: "شكل كتابة الأسطر له دور مهم في دلالة المقطوعة، لذلك، فإن الشاعر ملزم بأن يتقن إلى الفروق بين الكتابة السطرية، وبين الكتابة النثرية، وكذلك المحلل الذي ينبغي أن لا يقتصر على ما يراه ببصره، لكن عليه أن يستخدم بصيرته أيضا"⁴¹.

يولي محمد مفتاح أولوية للشكل في تشكيل البنية الداخلية والجمالية للقصيدة، لأن الشعراء المعاصرين منحوا حاسة البصر مكانة مهمة في قراءة الأشياء وتذوقها، واستحضروها في مساحات قصائدهم، وهذا الأمر كان نتيجة هيمنة الثقافة البصرية، بالإضافة إلى خصوصية التجربة الشعرية الحديثة التي كانت استجابة لتحولات سياسية، واقتصادية، واجتماعية وفكرية وجمالية، انعكست على الشعر الذي أصبح بدوره ينهل من الشكل البصري بعض أهم سماته؛ فأصبحت القصيدة الشعرية الحديثة تستمد جوهرها من سمات فنية جمالية مختلفة لا ترتكز على اللغة فحسب بل تُراعي جوانب أخرى، أبرزها الجانب البصري؛ فتمفصلت القصائد إلى فضاء نصي وفضاء صوري، وفي هذا السياق يُميّز فرانسوا ليوطار في كتابه "الخطاب والصورة"، بين نوعين من الفضاء المتعلقين بالنص من حيث هو معطى بصري؛ أحدهما: نصي يُقصد به: "الفضاء الذي يحتوي الدال الخطي، وبذلك يبقى المعطى المقدم في إطاره

⁴⁰ - محمد مفتاح: "مفاهيم موسعة"، ج 1، ص 41.

⁴¹ - محمد مفتاح: "مفاهيم موسعة"، ج 3، ص 74.

مجرد نص مقدّم للقراءة⁴²، وثانيهما الفضاء الصوري؛ وهو الفضاء الذي يتضمّن أثرا يستوجب من القارئ وضعاً معيناً ليتلقّى الأشكال التي يبرزها الأثر⁴³. علاوة على أن الجانب الإيقاعي حاضر كذلك في التشكيل، حيث إن مفهوم الإيقاع الداخلي اتسع ليشمل الأنظمة غير السمعية كانتظام الألوان، وإيقاع الكتابة، والفراغ... إلخ، وكلها ذات أثر في نفسية المتلقي على النحو الذي تفعله الأذن.

تجدر الإشارة هنا إلى أن بلاغة المكان أو الفضاء الهندسي هي بلاغة شعرية جسدية خارجة عن المؤلف ومتمرّدة عليه، تسعى إلى الاحتفال بالخط والجسد ضداً على جبروت الصوت وأوهامه أو ميتافيزيقاه، وهذا ما جعل الشعراء المغاربة، مثلاً، يسعون إلى استلهام الخط المغربي بغية حل معضلة التواصل والتلقي الشعريين، وتأكيداً منهم على أن الخط المغربي يمثّل الخصوصية القومية، تمييزاً لها عن الخصوصية المشرقية التي ظلت مهيمنة وسائدة.

نشير إلى أن محمد مفتاح رغم قوله بالهامش الكبير الذي أصبح يلعبه التوزيع البصري في تشكيل جمالية القصيدة المعاصرة، إلا أنه يؤكّد على أن هذا المكوّن البصري حاضر منذ القدم، إذ يقول: "امتزج الأيقون منذ القديم بالحروف اللغوية فاندماجا معاً لتكوين بنية واحدة لأداء رسالة معينة"⁴⁴.

يقول محمد مفتاح متحدياً عن إحدى قصائد محمد بنيس: "شاعر ديوان "ورقة البهاء" يكتب أحياناً بطريقة النثر العربية المتوارثة، فلا نقط، أو فواصل، أو أية علامة رقميّة، وأحياناً أخرى يمزج بين الكتابة النثرية، والكتابة السطرية، وأحياناً تكون هناك أسطر، وما تبقى بياض؛ على أن هناك ظاهرة أخرى لافتة للانتباه. تلك هي تجزئة الصفحة إلى قسمين يكون أحدهما مكتوباً بخط غليظ، وثانيهما بخط رقيق في تناوب بين اليسار، واليمين"⁴⁵، ومن ثمّ يقدّم أمثلة على ما قاله.

المستفاد هو أن التساود والتبايض داخل في شكل بناء وكتابة القصيدة، وداخل في المضمون الشعري كذلك، لأن محمد مفتاح يُضفي على السواد والبياض دلالات ومعاني، ومما يعرّز هذا الذي ذهبنا إليه، قوله: "تلك أمثلة تحمّم

⁴² محمد الماكري: "الشكل والخطاب - مدخل للتحليل الظاهراتي"، المركز الثقافي العربي، ط 1، 1991، ص 233.

⁴³ محمد الماكري: "الشكل والخطاب - مدخل للتحليل الظاهراتي"، ص 107.

⁴⁴ محمد مفتاح: "التشابه والاختلاف - نحو منهجية شمولية"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 1996، ص 209.

⁴⁵ محمد مفتاح: "مفاهيم موسعة"، ج: 3، ص 145، التشديد من عند المؤلف.

على قارئ مثل هذا الشعر أن يراعي "سَوَاصَ" الصفحة: طول الأسطر، أو قصرها، وتبعثر الكلمات، ومقدار البياض بين الأسطر، والبياض المحيط بها من كُلِّ جانب؛ السواض التحام، واتساق، وانسجام، له دلالات يُقدِّمُ الشاعر مؤشرات عليها فيُشَيِّدُ القارئ منها معاني، تبعا لتجربته؛ ونزعم أن الدلالة الأساسية، هنا، هي الأوضاع المتقلِّبة والمختلطة⁴⁶.

يذهب محمد مفتاح إلى أن من مهام ناقد الشعر أن يُسائل ويُحلِّل مختلف الأوضاع التشكيلية التي تتبدَّى فيها القصائد على الصفحة، وقد نحت مفهوما إجرائيا لذلك هو "السواض"، الجامع للفظتي السواد والبياض، لئيسعفه في تحديد دلالات القصيدة استنادا إلى إلباس هذين اللونين المركزيين في الحياة البشرية دلالات وحمولات، غير أن هذا العمل يدخل في باب التأويل، وخير دليل على ذلك هو لفظ "نزع"، ومعروف أن الزعم لا يرتقي إلى مصاف الخطاب البرهاني اليقيني، وفق التراتبية المعمول بها في مباحث المنطق والحجاج.

يعتمد محمد مفتاح إلى دراسة البياضات، وتحديد نسبها وقيمها في القصيدة، باعتبار هذه الأخيرة لوحة تُزَوج بين السواد/ الوجود، والبياض/العدم، ويعمل على التأكيد على أن حضور الأشكال والرسومات في المتن الشعري ليس حضورا اعتباطيا، وإن طالته الاعتباطية في أنحاء، إلا أنه يبقى في الغالب الأعم، عملا غائيا، مرتبطا أشد الارتباط بتصورات الشاعر ونفسيته. وبهذا يمكن القول إن الرسوم والأشكال ليست تكميلا للكتابة، بقدر ما تُشكِّلُ أحد أركان القصيدة باعتبارها جزءا مهماً من فنية الشعر، أي أن نصيبا وافرا مما يجعله فنا من الفنون الجميلة، يتحقق على المستوى التصويري.

وفي ارتباط وثيق - دائما - مع هذا التفاعل القائم في القصيدة الشعرية بين مكوني البياض والسواد، يقول محمد مفتاح في سياق حديثه عن إحدى قصائد الشاعر المغربي رشيد المومني المتضمنة في ديوانه الموسوم بـ "هكذا سدى": "يجد القارئ التداخل على مستوى البياض، والسواد، أيضا؛ في مقطوعة (بحار مالك بن الربيع) يكتسح البياض السواد أحيانا، ويهيمن السواد على البياض أحيانا أخرى، كأن تكون الصفحة بيضاء إلا جزءا قليلا منها؛ وقد لا حظنا أنه يُكْمِلُ إيقاع السواد، فيكونان معا نهاية بنيوية يعكسها فضاء البياض، وتكثيف خطي، ومعنوي"⁴⁷.

⁴⁶- محمد مفتاح: "مفاهيم موسعة"، ج 3، ص 149.

⁴⁷- محمد مفتاح: "مفاهيم موسعة"، ج 3، ص 89.

إن تنظيم الفضاء حسب محمد مفتاح من مميّزات الشعر عن النثر؛ حيث يتجلى في طريقة كتابة الشعر التقليدي، أو الموشحات، أو التشجيرات، أو التختيمات، أو شعر التفعلة، كما ناقش قضية عجز اللغة، فاعتبر السواد والبياض موضوعا جماليا وأيقونة على عجز اللغة (ص: 263، ج: 2)، مع إشاراته المتعددة إلى أن البياض/ السواد متضادين يؤديان إلى التكامل، وليسا متناقضين (ص: 264، ج: 2)، كما أنه، واستنادا إلى علم الموسيقى قايس البياض على الصمت، ومنحه قيما زمانية على غرار ما يُعمل به في الموسيقى مع الصمت. ومن هنا، إلحاحه على العلاقة الوثيقة التي يكتسبها مؤشّر البياض/ السواد في تحديد إيقاع القصيدة إلى جانب مؤشّر الصوت/ الصمت.

تحضر السيميائيات إلى جانب الموسيقى أداةً منهجية فعّالة في تحديد أيقونية اللغة، وتحليل دور كل من البياض والسواد وتحديده في القصيدة الشعرية، وفي سياق حديث محمد مفتاح عن إحدى قصائد أدونيس المُدرجة في ديوانه "المسرح والمرايا"، يقول: "إن القصيدة تقوم على الإيجاز، والاختصار. لذلك، فإن البياض يُهيمن عليها أكثر من السواد؛ ومعنى هذا أن المسكوت عنه أكثر من المنطوق به، والمدة الزمنية للبياض أطول ممّا في السواد"⁴⁸.

بخصوص الدّواعي التي جعلت محمد مفتاح ينحت هذه المفاهيم، من "تبايض" و"تساود" و"سواض"، وغيرها، فإنه يوضّح تعلات هذا المسعى النقدي والتنظيري، قائلا: "تأسست إعادة نظرنا على تجزيء مفهوم التناص إلى التناص الخارجي بأنواعه، وإلى التناص الداخلي بمكوّناته؛ ومع أن هذه المحاولة مفيدة، فقد تبينّت لنا حدودها، فاقترحنا مفهوم (التبايض)، واعتبرناه قسيم التناص، أو وجه العملية الثاني، ثم جرّأناه إلى التبايض الخارجي، وإلى التبايض الداخلي؛ الخارجي ما يُشاهده الكاتب في محيطه، فيمسه، فيدركه، فيخزّنه، فيستعمله عند الحاجة، فيتجلى في القصيدة بصفة عامة، وفي القصائد الأيقونية التجسيمية بصفة خاصة؛ وأما الداخلي فيكون في اختلاف أسطر الصفحة من حيث طولها، وقصرها، وفي مقدار ما يكون بينها من مسافة، وفي نسبة المسودّ، والمبيّض إلى جهات الصفحة الأربع"⁴⁹.

⁴⁸ - محمد مفتاح: "مفاهيم موسعة"، ج 3، ص 204، لمزيد من التفصيل عن العمليات التي تُحدّد بها نسب البياض والسواد يمكن الرجوع إلى الصفحات: 200-201.

⁴⁹ - محمد مفتاح: "مفاهيم موسعة"، ج 3، ص 129.

رغم التعالق الذي يشيده محمد مفتاح بين كل من البياض والسواد في تحديد إيقاع الشعر وموسيقاه، إلا أنه يُغلب المنحى الدلالي لكل من السواد والبياض، والمنحى الموسيقي لكل من الصمت والصوت، وهذا ما يتبدى جليا في قوله: "من أجل التفرقة بين المجالين؛ الصوت والصمت والمقطع في الإيقاع، والسواد والبياض والكلمة في المعاني"⁵⁰.

7. الخلاصة والاستنتاجات

أصبح من المعلوم أن السيميائيات علم مركب يحتفي بالمنطق الذي يُشكّل أحد ركائزه التحليلية؛ فغير خاف على أحد - من المختصين - الاستناد المشبع والمغرق في المنطق من قبل السيميائيين بكل ما فيه من مقولات ومحددات وتلازمات، وخاصة المربع المنطقي الذي تحوّل إلى مربع سيميائي كاشفٍ عن العلاقات الدلالية؛ من تناقض وتضاد واقتضاء وغيرها.

نجد محمد مفتاح، في هذا الصدد، يُدافع عن استقلال السيميائيات، غير أنه من تتبعنا لإنتاجاته لاحظنا أنه لم يُبرز استقلالية السيميائيات بقدر ما زاد من إغراقها في المنطق والرياضيات، خاصة بانفتاحه على الموسيقى.

كما أنه لم يخرج عن ثنائية المنطق الصوري الأرسطي، وهذا ما نُرجعه إلى أصالة هذا المنطق القائم على التقابلات التي تجد أساسها في كل الموجودات، من طبيعية، ومجتمعية، وإنسانية، رغم قصورها في بعض الحالات والمواقف، خصوصا ما تعلق منها باللغة الشعرية الإبداعية القائمة على الاستعارات والمجازات والانزياحات.

استتبنا خلاصة مُفادها، أن منهج محمد مفتاح منهج تكاملي، أو ما أطلق عليه "السيميائيات التركيبية"، التي تعمل على دمج السيميائيتين الأمريكية والأوروبية، وهي مطعمة كذلك بالموسيقى بمختلف نظرياتها، واللسانيات بمختلف اتجاهاتها، وغيرها من العلوم المعرفية والاجتماعية؛ فرغم حديثه المطوّل عن العلوم المعرفية والفيزياء والبيولوجيا، إلا أنه يظل سيميائيا في المنشأ والمنتهى، وتحليلاته تعتمد على السيميائيات التركيبية عبر تطويرها وتجديدها - دائما -

⁵⁰- محمد مفتاح: "مفاهيم موسعة"، ج 2، صص 262-263.

بالمفاهيم العلمية المستجدة. حيث إن محمد مفتاح يعتبر كل شيء علامة دالة، وهذا ما يجعله يحتفي بالخطاب الأيقوني أيما احتفاء، كما أن دراسته لأيقونية القصيدة الشعرية هو الدليل على اشتغاله بالسيمائيات منهاجا وتحليلا.

إذ إن التحليل الدقيق للسواد والبياض مكوّن أساس في شعرية الشعر بصفة عامة، والشعر المعاصر بصفة خاصة، وهذه مسألة استتجناها من طول مطالعتنا للكتب الثلاثة مدار المدارس والتحليل، لأنه إنكنا للنسق البصري وحثّ على تبيان دوره الهام في تشكيل جمالية القصيدة المعاصرة، استنادا إلى تحليل نماذج شعرية مختارة.

كما لا يفوتنا أن نشير إلى أن محمد مفتاح رغم تصريحه في أكثر من موقع باعتماده منهاجية توفيقية تجمع بين العلوم المعرفية والموسيقى والسيمائيات في تحليله لمكون الفضاء الشعري، إلا أنه لا يُحيل على أعلام وسيمائيين ممن سبقوه، وللتوضيح أكثر، فلنأخذ على سبيل الذكر لا الحصر، قول السيميائي الروسي يوري لوتمان: "الفضاء يعد دالا، وكل مقولة مكانية لها دلالتها الخاصة بها"⁵¹.

أصبحت فلسفة انتظام الكون بمثابة عقيدة مطلقة عند محمد مفتاح؛ فمن المعلوم أن إدراكاتنا وتصوراتنا للكون وللعالم، تُؤطر هامشا كبيرا من سلوكياتنا وممارساتنا اليومية، وحتى انحيازاتنا ومواقفنا، كما تُرخي بظلالها على ميادين البحث المتنوعة والمتشعبة، فغالبا ما تحضر لدى الباحث مسلمات وبيدهياتن الراجح أنها تحجب عنه حقائق أخرى، ويُصيح كل ما يُعارضها مقبولا ودنيا. تعامل محمد مفتاح مع الفكر ما بعد الحداثي تعامل مخاتل وذرائعي.

يطرح الهامش الكبير الذي يشغله كل من اللاوعي واللاأدرية في المنجز الإبداعي سؤالا مهما، هو: كيف نحلل تحليلا علميا أشياء لم يُحسم فيها أهي من مصادر الوعي أم هي نتيجة لاستيهامات واستدعاءات لا واعية؟ وما هو مصير هذا اللاوعي - إن وُجد - ضمن منهاجية محمد مفتاح الموسعة؟

⁵¹ - يوري لوتمان: "سيمياء الكون"، ترجمة: عبد المجيد نوسي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- بيروت، ط 1، 2011، ص 153.

لهذا، نؤكد على أن النقد يقع موقعا وسطا بين الفن من جهة، وبين العلم من جهة ثانية، ولهذا يعسر أن يكون فنا خالصا، أو علما محضاً، علاوة على أننا لا نأخذ من النظريات والاتجاهات المختلفة سوى نتائجها. وبهذا ينفصم توظيف نتائج مختلفة على نصوص شعرية عربية هي وليدة المجتمع والثقافة العربيين.

وفي الأخير، نشير إلى أنه عندما نتحدث عن التأويل فإننا نبتعد شئنا أم أبينا عن القول بالمعنى المطلق والأحادي، غير أننا ملزمون بالقول إن تأويل محمد مفتاح مدعوم بالعديد من الحجج والعمليات العقلية ومختلف السياقات الاجتماعية والثقافية والنفسية ولولا سيادة مذهب تناغم الكون لكانت قراءته أكثر ملاءمة للاختلافات الجوهرية بين الشعراء المدروسين. لأن ما قد يصلح لقراءة هذا الشاعر قد يعجز في تلقي ذلك الشاعر.

8. التوصيات والمقترحات

- ضرورة تطوير عمل محمد مفتاح، وذلك عبر التدقيق في مختلف العلوم والمناهج والفنون التي يعتمد عليها في سياق دراسته وتحليله للخطاب الشعري.
- إلزامية معالجة وتناول الخطاب النظيري والنقدي لمحمد مفتاح عبر تبيان الأسباب التي دفعته إلى عقد التواشج بين اللسانيات والسيمياثيات والعلوم العويصة والموسيقى.
- اختبار الصحة فيما يتعلق بالنظرية المنهاجية السيميائية عند محمد مفتاح عبر تطبيقها على شعراء آخرين، دون الانحياز إلى مقولة "نظام الكون وتناغمه".
- ضرورة مسايرة التطور العلمي الهائل الذي تحقق في هذا العقد الأخير، خاصة أن محمد مفتاح قد ارتكز على أفكار ومسلمات قد يكون تجاوزها العلم الراهن وعوّضها بأخرى، أي؛ الاسترسال في تطعيم البحث النقدي بأكثر المنجزات المستجدة في الدوائر العلمية الحقة.



مجلة جامعة الزيتونة الدولية - مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية

<https://journal.ziu-university.net>

30/03/2024

98-67 : ص.ص العدد العشرون : ISSN: 2958-8537 Issue: N20

Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

9. قائمة المراجع

- محمد مفتاح: "مفاهيم موسعة لنظرية شعرية- اللغة- الموسيقى- الحركة"، الجزء الأول: مبادئ ومسارات، المركز الثقافي العربي، بيروت- الدار البيضاء، ط 1، 2010.
- محمد مفتاح: "مفاهيم موسعة لنظرية شعرية- اللغة- الموسيقى- الحركة"، الجزء الثاني: نظريات وأنسايق، المركز الثقافي العربي، بيروت- الدار البيضاء، ط 1، 2010.

- محمد مفتاح: "مفاهيم موسعة لنظرية شعرية- اللغة- الموسيقى- الحركة"، الجزء الثالث: أنغام ورموز، المركز الثقافي العربي، بيروت-الدار البيضاء، ط 1، 2010.
- محمد مفتاح: "تحليل الخطاب الشعر (استراتيجية التناص)"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط 4، 2005.
- محمد مفتاح: "التشابه والاختلاف - نحو منهجية شمولية"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 1996.
- روجر فاوولر: "النقد اللساني"، ترجمة: د. عفاف البطانية، مراجعة: هيثم غالب الناهي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت- لبنان، ط 1، تشرين الثاني (نوفمبر) 2012.
- جيل دولوز: "سينما الصورة- الحركة"، ج 1، ترجمة: د. جمال شحيد، مراجعة: د. نبيل أبو مراد، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، نيسان، ط 1، أبريل 2014، ج 1.
- محمد الماكري: "الشكل والخطاب - مدخل للتحليل الظاهراتي"، المركز الثقافي العربي، ط 1، 1991.
- أرسطو: "كتاب الطبيعة"، ج 2، ترجمة: إسحاق بن حنين، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 2، د. ت.
- ألبيرداس. ج. غريماس وجاك فوننتيني: "سيمانيات الأهواء - من حالات الأشياء إلى حالات النفس"، ترجمة وتقديم وتعليق: سعيد بنكراد، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت- لبنان، ط 1، آذار/ مارس/ الربيع 2010.
- أمبرتو إيكو: "العلامة- تحليل المفهوم وتاريخه"، ترجمة: سعيد بنكراد، مراجعة: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط 2، 2010.
- يوسف كرم: "العقل والوجود- دور العقل في إدراك الموجودات"، إعداد وتحقيق: محمد ثابت، منشورات البندقية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط 1، 2018.
- دانيال تشاندلر: "أسس السيميائية"، ترجمة: د. طلال وهبه، مراجعة: د. ميشال زكريا، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط 1، تشرين الأول (أكتوبر) 2008.
- سعيد الحنصالي: "الاستعارات والشعر العربي الحديث"، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 2005.
- يوري لوتمان: "سيمياء الكون"، ترجمة: عبد المجيد نوسي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- بيروت، ط 1، 2011.
- جميل صليبا: "المعجم الفلسفي- بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية"، ج 1، دار الكتاب اللبناني، بيروت- لبنان، د. ط، 1982.
- غاستون باشلار: "تكوين العقل العلمي - مساهمة في التحليل النفساني للمعرفة الموضوعية"، تعريب: د. خليل أحمد خليل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط 6، 1421هـ - 2001م.



- مجموعة من الكتاب: "نظرية الشعر - قراءات في كتاب: "مفاهيم موسعة لنظرية شعرية"، للأستاذ محمد مفتاح، تنسيق: أحمد بوحسن، ومحمد الوهابي العلمي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة: كراسات الكلية، رقم: 4، مطبعة الأمنية- الرباط، ط 1، 2013.

- أعمال ملتقى: "الأدب الجزائري في ميزان النقد (السيمائية والنص الأدبي)"، معهد اللغة والأدب العربي، جامعة عنابة، د. ط، س 1995.

- Groupe d'entrevernes : « Analyse sémiotique des textes- Introduction- Théorie- Pratique », Presses Universitaires De Lyon, 1979, 6^{ème}Ed, 1988.

- Charles Sanders Peirce, collected papers of charles sanders peirce, 8 vols. (Cambridge Harvard university press, 1931- 1958), paragraph 2. 302.